«الحارس المتعب»

مسيح القرن العشرين

بقلم شمس الدين موسى

عندما يكون حديث الفـــن مرتبطا الى حد بعيد بقضايا فكرية وسياسية واجتماعية مباشرة ، سواء كانت عالمية أو محلية ، فالمتحدث يكون كمن يسير على جدار مرتفع دون ان يستند الى شيء يصبح لـــه عونا من السقوط غير ارادته وعزيمته وخبراته المكتسبة .

وفي رأينا ان الفنان المعاصر ليس في حل من مناقشة ما يـــدور في نفسه وفي عالمه من قضايا وأفكار يطرحها الواقع المعاش في سيرته اليومية . كما ان قضية الالتزام بالرغم من الاختلافات التي نواجـــه فنانا يعيش في بلد متقدم عنه في بلد جديد يقع تحت نير الاصفـــاد والقيود ـ تتبلور بالتحديد فيما يمكن ان يثير اهتمام الفنان ممـــا يدور حوله ، وما يفور به عالمه .

الشاعر « بلند الحيدري » .. يعتبر من الرعيل الاول الذي ركب غمار المخاطرة بتطرقه الى عمليـــة اخراج الشعر العربي من قوالبـــه الكلاسيكية حتى يمكن أن يلبي حاجات الانسان العربي المعاصر الـــذي أصبح اكثر اقترابا من مشـــــاكل الانسان في مختلف أنحـاء الكرة الارضية ـ خاصة وان التقدم العلمي كان له اثره في كسر حاجز المسافة بين مختلف بلدان العالم . فهو أحد ثلاثة شعراء عراقيين كان لهم فضل السبق في قيادة الموجـة الجديدة التي عملت على شـق الطريق الصعبة المحفوفة بالمخاطر سواء على المستوى الفني او الاجتماعي .. فبلنـــد الحيدري ، وبدر شاكر السياب ، وعبد الوهاب البياتي ـ وان اشتركوا في هويتهم العراقية ، الى جانب انهم نتاج مرحلة معينة ، وأبناء جيل واحد ـ الا ان لكل منهم كفنان سماته الخاصة التي تميزه عن غيره .

وعمر الفنان الفني الزمني لا يمكن ان يقدر بشهادة ميلاده ، أو من خلال الاطار الفني الذي يصب فيه أحاسيسه ـ بل يقدر بنبضاته الفنية وألوانه وتشكيلاته التي تكون في مجملها اكثر تعبيرا عـن ذات الفنان المعاصر . ولقد شق هذا الجيل بصعوبة طريقه عبر الصخـــور ضد جميع التيارات والمدارس القديمة والمستحدثة . حتى انهم بانتاجهم الفني شكلوا المخاض العارم الذي نبضت به التربة العربية كمقدمـــة للبركان الذي تفجر في كل انحاء الوطن العربي مقدما عشرات الشعراء الاصلاء الذين أكدوا ضرورة وحتمية وجود الشعر العربي في اطـــاره الحديث الذي كان اكثر استجابة لحاجات الانسان في مرحلة تطلعـــه الى الانطلاق والبحث عن الذات الضائعة تحت نير الاستعمار الـــذي كبل العرب سواء كانوا في بغداد او دمشق او الناصرة او القاهـــرة او بيروت ... الخ .

والفن كما يقول الاستاذ حسين مروة في جوهره يشكل ظـــاهرة اجتماعية لا تنبت بمعزل عما يدور حولها من تحولات ، والفنان في رأينا هو الترمومتر الذي يمكن ان تقاس به حرارة أي مجتمع .. واذا كـان بلند الحيدري قد غنى شعرا منذ أوائل الاربعينات مساهما في اشعال الثورة التجريدية في الشعر العربي الا انه ظل طوال سيرته يحمـــل نفس المشعل فتخرج أبياته نابضة بالحب .. بالحنين .. وديوانـــه الاخير (أغاني الحارس المتعب) اكبر شاهد على هذا . فهو يشتمل على ثلاثة خطوط متميزة تبرز من قصائده : الخط الاول وهو واضح في معظم القصائد يحمله الشاعر جميع أحاسيسه وهمومه السياسية والفكرية ، فهو يشعر بما شعر به بنو وطنه ولكنه يأبى الصمت أمام ما يحـــدث أمامه من غش وخداع فيرفع عقيرته معبرا عن موقفه . فالكلمات هـــي الطلقات التي يصوبها الى صدور الاسياد .. ويقول في قصيـــــدة « اعتذار » :

معذرة ضيوفنا الاسياد .
قد كذب المذيع في نشرته الاخيرة .
فليس في بغداد
بحر
ولا در ولا جزيرة
وكل ما قال به السندباد
عن جزر الياقوت والمرجان
عن ألف ألف من يد السلطان
خرافـــة من نســـج قيظ الصيف
في مدينتي الصغيرة

وكما يدين الشاعر الكذب بوضوح وعلى الملأ نجده أيضا يأبى الا ان يفضح الجرائم التي تتم بداخل الحجرات المغلقة والتي يذهب ضحيتها الابرياء من الابطال الذين يموتون ضحايا فساد وظلم السلطان .

وفي قصيدة (متهم لو كنت بريئا) يعبر الشاعر عن تجربتـــه الخاصة في أبيات جميلة سهلة ـ ولو انه استخدم التكرار لعبـــارات معينة لكنها كانت تساعده على تأكيد المعنى الذي يقصده . فهو يتخيل نفسه كأداة من الادوات التي تستخدم للتعذيب ، فجسد كيانه المـادي كمسمار يغور في عيون الضحايا .. كما يغور في الجدار بالرغم مـــن أحاديث الحب والالم والعالم المفقـــود .. الجنة التي يحلم بها البشر والتي تضيع أعمارهم بحثا وراء سر الاسرار لفك الرموز محققين بـــذلك صدق النبوءة القديمة .. فالبطل لدى الشاعر هنا مسيح .. مسيح جديد يفدي البشرية بدمائه من فوق صليبه الذي قيد جسده اليه .. ويقول الشاعر في القصيدة :

ـ مثلما أردتني
بقيت كالمسمار
أغور في عينيهما
أغور في سريهما
أغور في الجدار

. . . . . .

ويقول ايضا :

ومثلما أردتني .. ومثلما خلقتني .
لم أفهم الحوار
لانني علوت عن حبهما الرائع
عن جسد كالنار
ومثلما حذرتني « الناس مجرمون »
الكل مجرمون
حتى الضوء البريء في العيون
ومثلما أردتني
بقيت كالمسمار ...

ويعود الشاعر في نهاية القصيدة فيشعر بالذنب والندم امام الضحايا .. فيقدم اعتذاره عن استخدامه كأداة .. ويقوم بتلاوة شهادته الحقيقية أمام الجميع بصدق .. فيقول :

ـ معذرة يا سيدتي .
كانا بريئين باصرار .
كانا بريئين باصرار .
وعندما استيقظ في مدينتي النهار
تسربت في نشرة الاخبار
عن غرفة في الطابق السابع
عن موعد للثار
عن غضب الثوار
وكان في عنقيهما حبل وفي كفيهما
مسمار ...

وفي الخط الثاني من خطوط الديوان الفنية والذي برز واضحا من ثنايا السطور ، تتمثل أحلام الشاعر وأمانيه ورؤاه المستقبلية القائمة على نظرة واقعية للحياة والانسان والكون والقوى التي تتحكم في مساره ـ فالانسان لا يزال يتعثر في الظلمات بينما يتحول النور الى ابشع شيء عرفه الانسان ـ فالمدينة عنده مبعث للعفن والخداع والبشاعة . فيقول في قصيدة « ثرثرة في الشارع الطويل » :

ولم يكن في قريتي حذاء
أو شارع مضاء
أو رغبة في سفرة تبعد عن مشارف المساء
فمن أكون .. ومن تكون .

عند هذا يتيه الشارع بين دياجير الظلمة حتى انه لا يعرف نفسه .. فمن يكون هو .. ومن يكون الذين حوله . ثم عند هذا لا يسعه الا ان يقدم تجربته خالصة كثيفة مركزة حفاظا منه على الحد الادنى الذي يراه لم يدنس بعد ... فيقول ناصحا :

لا تقترب .. لا تقترب .. يا لك من مجنون
ابعد عن الشوارع المضيئة
كالنور كالخطيئة .
ابعد عن الـ ...
أخاف ان تأسرك استفاثة التاريخ
.. والزمن
أخاف أن تأسرك المدن
أخاف ان تصير في حذائك العفن .

وبهذا ينادي الشاعر بعدم التلاحم والامتزاج في الحياة الحضرية المزيفة . وليس البديل كما توحي ظلاله وكلماته الا العودة الى البكارة .. الى الاصل .. الى ظلام الرحم .. ففي حياة النور لا يظهر الا البشاعة والتقيح الذي تملأ روائحه كل مكان حوله .

ويذهب الشاعر في قصيدة « حلم في اربع لقطات » الى نتيجة معينة ـ وهي اذا كان الخلاص هو الغاية للانسان الباحث عن الحقيقة ، سواء كان متفرجا أو منتجا أو ممثلا ، فانه من وجهة نظره ليس الا في المقاومة من خلال السلاح . فلمعان السلاح يحمل الامل القادم ، وان كان ما يدور ليس الا تمثيلية أو فيلما يتجمع فيه البطل ، والضحية ، والفنان ، والمنتج الخ ... وليس كل هؤلاء الا شخصا واحدا ، وهذا قمة احساس الفنان بالملل والسأم أمام التمثيلية المكررة والمعادة التي تنتهي بالسقوط . فيقول :

رجلان نجوسان الليل بلا صوت .
الظلمة توحي بالموت
تلتمع السكين
تنجمع في النصل رؤى لسنين
وسنين .

ويكتمل احساس الشاعر بالازمة في قصيدة (النزع) التي خرجت مكتملة في أحاسيسها .. فهي تجربة داخلية حملها الفنان كل مكنوناته ودفقاته ، وان استخدم التجريد ، فليس هذا الا نتيجة لتضارب الالم والامل والعذاب الذي حاصر وجدانه في تجربته الحية .. وقد كانت القصيدة من أجمل لوحات الديوان فنيا .. فالكلمات تنساب متسربة الى داخل النفس ، والتجربة تمثل في جانبها الفكري عقل الانسان الذي يتقلب بين الشك واليقين . فالشمس سوف تسقط .. وقد عرف الفنان الشمس بمثل ما عرف يقينه في الصباح والمساء وعبر الديار ، ولكنه يتمرد امام الشك فيقلب كل شيء رأسا على عقب :

أتسقط الشمس التي عرفتها .
حكاية طويلة
في رحلة الرمال .. والبحار .
في رحلة الصياح عبر دارنا
. . . .
أتسقط الشمس التي عرفتها
في نظرة الغواص من سنين
في استفاثة المحار
أجرح رجلي سؤالا ساخرا
سأركل السماء
سأركل السحاب والنجوم والمستوحد الزناء
أركله .. أقتله
أغرس اسناني في جثته الزرقاء
أشعله
أسحله من شارع الشارع ، أقيم
من جذاه آلهة صغار
ان شئت أن أعبدها .. أعبدها
ان شئت أن أطردها .. أطردها
أرقصها
أوشم في أثدائها زانية وزانيا
وكومة الحجار .
. . . .

والخط الثالث : هو الحلقة التي تربط الفنان العربي القسمات بالعالم وما يدور فيه من أحداث .. فهو ليس معزولا عن ملامح عصره بل هو جزء من العالم الذي يؤثر ويتأثر به ، وكيف ينام الحارس الذي تعب من طول اليقظة ، وان سقط في النوم لكنه لا يستطيع النوم والنوم عنده كحد السكين ، وبعدها الكوابيس والاحلام المزعجة ، وربما يوم القيامة الذي ينهار فيه كل شيء . وعلى لسان الحارس المتعب من طول السهاد والسهر واليقظة يقول :

للمرة العشرين .. أريد أن أنام .
أسقط في النوم ولا أنام
للمرة الخمسين
سقطت في النوم ولم أنام
فالنوم عند الحارس الحزين
يظل مثل حافة السكين
أخاف أن أنام

أخاف أن أفيق في الاحلام .

ثم يطلب منه رغم هذا ان ينام ، وليحرقوا برلين وروما والصين، ولكن عليه ان ينام . لكنه يأبى .. ويقول :

أنام ولم تزل تحرق كل لحظة برلين .
يسرق كل ساعة سور من الصين
يولد بين لمحة ولمحة تنين
أخاف أن أنام .

. . . . . .
. . . . . .

واذا كان الفنان يشعر بما يشعر به الحارس « الانسان » القلق الذي لا يمكنه من الراحة والنوم ـ بينما النار في الهشيم حية ، وربما في لحظة تتحول المدن والحضارة الى رماد ـ فشبح الموت يطل على الحارس حاملا اليه الاحلام المرعبة ـ فبرغم البؤس والجوع والامراض التي تفتك بحياة الناس في كل مكان ، الا ان هناك مجموعة من الناس ليس لهم عمل غير تخزين الدمار وتكديس الخراب الذي يعدونه للانسان ، بتسخير أرقى ما وهبته الطبيعة للانسان وهو العقل في اختراع أدوات الدمار الجهنمية .. وكيف للانسان ـ الحارس أن يغمض عينيه وسط هذا الهول ؟

ولقد كان لا بد للشاعر ان يهتز كما اهتزت الملايين في انحاء الارض لموت البطل الذي جسد المثال في واقع حي محا به المسافة بين القول والفعل ، فعندما قتل « ارنستو تشي غيفارا » اهتزت له الدنيا كلها حيث كان قد قتل مسيح عصرنا الدامي الذي لم يخش على حياته .. بل انه ظل يعمل من اجل تحويل الكلمة الحلوة ، والامل الطيب الى حقيقة .. الى واقع . ويقول الشاعر في قصيدة (هم .. وأنا .. » على لسان غيفارا :

أنا لا أعرف أن أضحك او أبكي
انسان مجنون
قرن مجنون
يبحث عن وردة عن حقد الشوك

وكما يدين الشاعر انسان القرن العشرين المجنون على لسان غيفارا يدينه على لسانه ايضا ، فهو لم يعرف قيمة غيفارا الذي قلما يتكرد الا بعد ذهابه :

ـ قرنكم العشرون .. وجهكم المجنون .
ـ كلا .. كلا
زرعونا في نقمة شمس ظهيرتنا ظلا
فبقينا في البيت الاول والثاني
في الثالث والرابع
في الخامس والسادس والسابع ... و ... و
اطفالا مصلوبين على الجدران
وجه الانسان بلا انسان .

وبذلك يكون الفنان قد وعى حقيقة ما يدور على الساحة ، ووضع كلماته كالطلقات .. شهادة على ما يحدث امامه .. فنسج من فنه ونبضاته الحية مع آمال وأحلام الناس التواقين الى الخير والجمال وثيقة الشهادة على رفضه لكل الزيف والعفن الذي يملأ عصرنا .وان لم تتضح في وجدان الفنان النبوءة التي يقدمها للاجيال القادمة ، فهو يعيش في أتون التجربة ، ولم تتضح بعد الرؤى المتفائلة المبشرة بحقيقة القادم .. فالشاعر في كل قصائده لم يحمل الينا حلما كاملا لحياة جديدة تخلو من موبقاتنا .. فالحارس لا يستطيع ان يغفو برغم طول التعب ، والمسيحية لم تنتشر بعد موت المسيح مباشرة بل ظلت الدنيا تعيش في دروب الظلمة اكثر من مئتي سنة .. وما بالك والعالم يفرز كل يوم يهوذا جديدا يطارد كل ما هو خير ويهدده بالفناء والدمار .

القاهرة

شمس الدين موسى

لوتس

الادب الافريقي الآسيوي

مجلة ربع سنوية يصدرها المكتب الدائم للكتاب الافريقيين الاسيويين في طبعات منفصلة باللغات العربية والانجليزية والفرنسية

يناير ـ ابريل ـ يوليو ـ اكتوبر

للتعريف بالادب الافريقي الآسيوي وتنميته وتقديم عناصره الجديدة والاصيلة ، وتحرير الثقافات الافريقية الآسيوية من النفوذ الاستعماري والاستعمار الجديد .

رئيس التحرير : يوسف السباعي

الاشتراكات : المكتب الدائم للكتاب الافريقيين الآسيويين

١٠٤ شارع القصر العيني ـ القاهرة ـ ج ع م

ثمن النسخة للبلاد العربية : ٢٠ قرشا مصريا او ما يعادلها بما فيها تكاليف البريد

الاشتراك السنوي في البلاد العربية : ٨٠ قرشا مصريا او ما يعادلها بما فيها تكاليف البريد